# ليل وعنان

بقلم : سعد حامد

انهى كل شيء كانه كابوس مروع .. وانطفأ كل من حولي .. واطفئت الأنوار .. وبقيت وحدي ..

انصرف اصدقائي ورملائي ومعارفي عائدين الى بيوتهم .. ليأكلوا وشربوا ويداعبوا اطفالهم ويضحكوا ويتلوقوا رشفات من الحب والحنان بين افراد اسرتهم ، وكان شيئا لم يحدث لعزيز لديهم ، ولعلهم سرعان ما نسوا ان حياته قد توقفت واصبحت حطاما .. ولكن هل انتهى الكابوس حقا .. كلا والف كلا .. لقد بدأ الكابوس بالامس ، ولا أدري اني سأستيقظ منه حتى نهاية العمر ..

كانت الليلة من ليالي الشتاء الباردة ، ولذلك فان المحزونين انصرفوا مكرين فاضطر المقرىء ان يختم قراءته ، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة مساء ، وحمل « الغراش » الكراسي والمقاعد ، واطفأ الكهرباء المصابيح ، وحملا اشباحهما وانصرفا ، وخيم على المنازل الساكن والبيت الحزين ظلام كثيف ..

والضاحية كلها .. حلوان .. ترقد في الظلمة العتمة ، وفي هذا الشتاء القارس يشملها سكون عميق وصمت كأنها خالية من الحياة والاحياء . الظلام غامض رهيب كذلك الظلام الكثيف الذي اكتنف حياتي من الامس .. أجل لقد انتهى كل شيء ، وانصرف كل لشأنه ، وبقيت وحيدا كسر القلب محطما ادور في شقتي الصغيرة مضطربا تائها تعسا كحيوان حبيس استرجع سلسلة لا نهاية لها من الذكريات ..

اني لا اصدق ابدا ان كل شيء قد انتهى بهذه البساطة ، واني اصبحت وحيدا ضائعا في هذه الدنيا الواسعة .. لقد ماتت المرأة الوحيدة التي شاركتني حياتي ، والتي كانت كل شيء لي في هذه الدنيا .. ماتت زوجتي بالامس وشيعنا جثمانها صباح اليوم الى مقرها الأخير ...

لم يعد لي بعدها شيء يجعلني احرص على الحياة او اعتبرها شيئا من اهتمامي . كانت هي كل شيء في هذه الحياة .. كانت أهلي واصدقائي واولادي ، فلم نجب اطفالا منذ تزوجنا منذ حوالي عشرين عاما ..

جئت من قريتي في مستهل الشباب شابا ريفيا خجولا ، وقد غادرت تلك القرية وعمري خمسة وثلاثون عاما . كنت حريصا على فراق تلك الأماكن الحبيبة التي عشت فيها طفولتي وصباي ، ولم أكن

قد فارقت أهلي من قبل ، فكان الفراق قاسيا على نفسي فاحتسبت به ، وترك في صدري والدتي يتحرك بي مغادرا أهلي وقريتي ، ودعوات أبي وأمي ترن في سمعي .. لكن كان لابد من هذا الفراق لأتم تعليمي في القاهرة .

والتحقت بإحدى المدارس الثانوية المتوسطة ، وعشت في المدينة في بيت يملكه رجل طيب أصبح بمثابة الأب لي ، فقد أحاطني وزوجته الطيبة برعايتهما وحنانهما ، وعطفا على غربتي ووحدتي في المدينة المزدحمة ..

كنت أقضي وقتي بين المدرسة والبيت لا أكاد أعرف في القاهرة سوى الحي الذي به مدرستي ، وكنت أقضي أوقات فراغي في شقة صاحب البيت وزوجته الطيبة .. وهناك وقع بصري على ابنتهما ، وصادفنا ودا صافيا نقيا ، واحتلت الفتاة في قلبي مكانا لم يشغله أحد من قبل ..

وعندما أنهيت دراستي وتوظفت لم أفكر في مغادرة القاهرة ، وخطبت تلك الفتاة وتزوجتها .. كنت أعتقد رأيا صغيرا ، فكانت خير زوجة رأيتها في الوجود . كرست حياتها من أجل راحتي وسعادتي .. رضيت بالقليل ولم تشك أو تتذمر حينما كانت تمر بنا أيام عسيرة ، وصبرت واحتملت كل جهد في سبيل إسعادي ، وعندما فكرت أن أواصل دراستي حتى أنال شهادة عالية شجعتني ووقفت إلى جانبي تحفزني على المضي إلى الأمام .. كانت تسهر الليل إلى جانبي تصنع لي أقداح الشاي والقهوة لمساعدتي على السهر ، ولم تكن تأوي إلى فراشها حتى أفرغ من استذكار كل دروسي .. كانت المصباح الذي أضاء لي طريق حياتي ..

وفزت بشهادتي العالية ، وأصبحت أحمل لقب مهندس ، وزاد راتبي ، فوفرت لها جميع أسباب السعادة .. كانت ترتبط بيننا عاطفة حب قوية .. كنت كل شيء في حياتها ، وكانت كل شيء في حياتي .. كان الحب يضم عشنا الصغير تحت جناحيه ، ولكننا في بعض الأحيان كنا نفتقد السعادة ..

كان يحزنني أحيانا أن أرى في عيني زوجتي وهي ترمق أطفال صديقاتها أو أطفال الجيران نظرات من الحزن الدفين ، ولم أكن بحاجة إلى أن تصارحني بأن أقصى أمانيها أن يكون لها طفل ، فإن الأمومة هي أعظم أماني المرأة ، وكنت أيضا أحب الأطفال لكن اهتمامي بدراساتي وعملي شغل كل وقتي فلم يتسع هذه الحكرة ، أما هي فكانت كثيرا ما تبدو حزينة رغم ما كنا نعيش فيه من تآلف ورخاء ، لكنها طوت أحزانها في صدرها ، ولم تصارحني بشيء ، وكان حزنها هذا يحز في نفسي كثيرا ..

وقد تردد على بعض الأطباء ، وكانت نتيجة الفحص أن الأمر عسير ، فهونت على الأمر ، وحاولت أن أبدو غير مكترث لكني كنت على يقين من أنها كانت تتألم في صمت ، ومرت بنا الأيام ، ولم يكن ينقصنا سوى وجود طفل يملأ بيتنا بمرحه ويشع بضحكاته روح السعادة في حياتنا ..

وصادف يوما أن دخلت على زوجتي وهي منفردة في إحدى لحظات الشقاء ، فرأيت الدمع يلمع في عينيها ، ولما سألتها عن سبب بكائها زعمت لي أنها تحس ببعض القلق الذي لا تستطيع أن تعزوه

الى شيء سوى اجهـــاد في الاعصاب ... لكنني لم اصدق كلامها فقد كنت اعلم السبب الذي يحزنها ويفوض سعادتها ، وقد تكرر هذا الأمر اكثر من مرة ، فصارحتها في حنان ورفق بانني اعلم سبب حزنها وانها يجب ان تتفضل ، وعسى ان يوفقها الله الى زوج اخر يمنحها الطفل الذي تصبو اليه والذي تتم به سعادتها ، لكنها اجهشت بالبكاء وهي تستمع لي وأقسمت انهـــا لو وضع الرجال جميعا في كفة ميزان وانا في كفة لكانت كفتي هي الراجحة لديها ، وانني وحدي مصدر سعادتها ومفزى آمالها اما تفكيرها في الأطفال فهو حماقة يستكف عن التفكير فيها من الآن ..

وقد فعلت حقا ، فلم اعد اراها دامعة العينين او حزينة ، وكانت تبدو ضاحكة سعيدة لتسعدني ، واصبحت تحوطني بعنايتها ورعايتها ، وكانني طفلها الكبير،وعشنا سعداء كاننا عاشقان صغيران يمرحان في جنة الحب حتى نعمها المرض ..

واستدعيت لها اشهر الأطباء ، وكرست كل دقيقة من وقتي لخدمتها واشرفت على شئونها بنفسي ، واستحضرت لها الدواء من الخارج بالطائرة ، وسهرت الى جانب فراشها الليالي الطويلة ، ورأسي يرتجف في صدري خوفا عليها ، وكان الأمل المحموم كان فوق كل شيء ..

وفي لحظة كلمح البصر انتهت حياة شريكة حياتي الغالية ..

ووجدت وحدتي وحيدا ، صامتا ،كسير القلب محطما ، وقد انصرف كل الناس من حولي ، والسكون عميق عميق ، والظلام كثيف يلف الضاحية كلها ، وصمر الدنيا ، ويخيم على صدري ..

ونزلت في الشقة ابحث عنها ، وانظر الى ثيابهـــا المعلقة على الشماعة ، واشم رائحة عطرها ، واهتف باسمها في صوت خافت ، وانا على يقين من انها لـــن ولن تلبث ان ترد علي ...

كان الليل لم ينتصف بعد ... وكانت هناك ساعات طويلة ، حتى يشرق ضوء الفجر ، فكيف اقضي هذه الساعات .. كان لابد ان اغادر الشقة وانطلق الى الخارج حتى لا اصاب بالجنون ..

سرت لا اعرف الى اين .. مضيت اتربح في الطرقات على غير هدى حتى وجـــدت نفسي في محطة القطار ، وكان على الرصيف قطار يتأهب لمغادرته استعدادا ليغادر المحطة الى القاهرة ، ووجدت نفسي التي بجسدي في احدى عرباته وهو يوشك ان يتحرك ..

لم اكن اعرف الى اين انا ذاهب .. انما كنت اريد فقط ان اهرب من حلوان ومن ذكرياتي ، ومن نفسي ... اهرب الى اي مكان على الاطلاق ..

القيت بجسدي في مقعد خال ، واسندت راسي المحموم على مسند المقعد ، واغمضت عيني . لم اكن ادري فيم كنت افكر .. كانت تتلاحق في راسي افكار سريعة مضطربة كمعتوه فقد رشده ...

انطلق القطار شق الظلام ، ودوى هديره بعد السكون الساكد ، وكل ما كنت اتمناه ساعتها

وصوت ذوى المجلات الرتيب يطرق سمعى ان تحملنى هذا القطار الى مكان بعيد .. بعيد جدا .. الى عالم خال من الالم والتعاسة والاحزان ..

كان القطار يقف فى المحطات ثم يتحرك وانا لا احس بوقوفه ولا بسيره . كنت شاردا تماما عن كل ما حولى ..

وانتبهت من شرودى على سيدة تدخل الصالون ، ويبدها راديو « ترانزستور » تنطلق منه الموسيقى ، وجلست امامى ، وحدست انها ركبت من احدى المحطات . كانت فى مقتبل العمر وان كان التعب يبدو واضحا على وجهها برغم المساحيق التى وضعتها عليه ، وكانت عيناها ذابلتين بجهدتين من السهر والتعب وقد تركت خصلات شعرها منسدلة على جبينها وكتفيها فى اغراء ، ولم تكن ترتدى معطفا فكانت ترتعش من البرد ، وفتحت حقيبتها وتناولت سيجارة واشعلتها ، واستراحت على مقعدها ..

كان منظرها والمساحيق الصارخة التى تلون وجهها ، وطريقة تصفيف شعرها ، والسيجارة بين شفتيها ، كل ذلك يوحى بأنها من نساء الليل ، وانها عائدة الى بيتها من سهرة ما ، واشحت بوجهى الى نافذة القطار ، وطرق سمعى صوت ام كلثوم ينطلق من الراديو « الترانزستور » الذى تحمله السيدة الجالسة امامى ، وهى تغنى اغنيتها المشهورة :

كان لك معايا احمل حكاية فى العمر كله

وبلغ الصوت الساحر الى امامى ، وهز نفسى هزا عنيفا ..

كان لك معايا احمل حكاية فى العمر كله
سنين ومرت زى الثوانى فى جنبك انا

اجل .. لقد مرت السنين كالثوانى .. مرت يا شريكة العمر .. مرت وانتهت ..
وانهمرت دموعى .. كالشلال .. ورحت ابكى واجهش بالبكاء ، وانا لا ادرى لماذا ابكى ، ولماذا انا فى القطار فى هذه الساعة ، والى اين انا ذاهب .. نسيت كل شىء عن حياتى ولم اعد اذكر شيئا .. اصبح عقلى كصفحة بيضاء ..

اسندت السيدة الجالسة امامى الى جانبى على المكتبة ، وراحت تسألنى عما بى ، وهل هناك ما يؤلمنى وانا لا اجيب عليها ، وفتحت حقيبتها وتناولت منها زجاجة عطر واخذت ترش منها على وجهى ومناديلى حتى هدأت لكى الدموع قلت لسيل من عينى وقمت حتى ..

قالت لى فى حنان :

ـ لماذا تبكى يا سيدى ؟ .

ـ لا ادرى .. ؟

ـ انك تبدو حزينا جدا . هل استطيع مساعدتك ؟

فقلت وانا لا ادرى ما اقول :

ـ اشكرك . ان حزنى لا حد له . انا حزين . حزين جدا لكنى لا اعلم لماذا انا حزين ..

ـ هل من سبب حزنك هذا الحزن فى نفسك ؟

ـ لا ادرى .. فى صدرى حزن عميق ليس فى استطاعة انسان ان يتصور معه .. انى حزين النفس محطم القلب اريد ان ابكى واظل ابكى ..

ـ امرك غريب يا سيدى . لابد ان هناك شيئا يؤلمك ..

ـ انسى وحيد يا سيدتى . هل تفهمين معنى كلمة وحيد يا بنتى .. انك فى ربيع شبابك ولو كانت لى ابنة كانت فى مثل عمرك . انا وحيد بكل ما فى هذه الكلمة من الم ممض .. انسان وحيد فى هذه الدنيا الواسعة الزاخمة بملايين الملايين من البشر .

كانت السيدة الصغيرة تتطلع الى وجهى فى حيرة واشفاق ملائكى .. واماما على الكنبة الاخرى كان الراديو الترانزستور ملقى هناك ، وام كلثوم ما زالت تردد « سنين ومرت زى الثوانى .. سنين ومرت زى الثوانى » ، وكان الدمع ما زال يتجمع فى عينى ، ويتساقط قطرات ..

كنت اريد ان اتكلم .. ان انفس عن هذا الحزن الثقيل الذى يجثم على صدرى .. قلت للفتاة المهولة :

ـ انت طبعا لم تعرفى معنى الوحدة ولم تعانيها .. الوحدة التى تجعل الانسان يحس بالغربة وهو فى حشد من الناس او وهو سائر فى الطريق وسط الزحام . انه يحس بانه غريب .. غريب عن هؤلاء الناس جميعا .. ليس له انسان يشاركه حياته او يحس بالامه او يبادله الحب او يمنحه الحنان او على الاقل يهبه العطف والاشفاق .. هل تخيلت وحدة المرضى فى المستشفيات حينما يهبط الليل عليهم ، وكل منهم راقد على فراشه وحيدا مريضا عالما بعيدا عن اسرته واحبائه .. هل تصورت السجين فى زنزانته يقتله الشوق الى نظرة واحدة من اطفاله الصغار او من زوجته .. هل تصورت حياة الاطفال الايتام الضائعين فى اللاجئين وشوقهم الملح الصارخ الى كلمة عطف ولمسة حنان .. هل تخيلت اسيائهم الوحشة عندما يأوى كل منهم الى فراشه فى القبو الواسع الخانق الضوء وهو يحلم بعطف الامومة وحنانها بينما يبكى قلبه فى صدره من فرط الحنين الى الاسرة والى اجتماع الشمل ثم بقلبه البوم وهو يتصور امه التى لم ترها حياء وهى تضمه الى صدرها وتقبل اباه الذى تركه صغيرا وهو يرتب عليه فى حنان وحب .. هل تصورت حياة الرهبان هناك بعيدا فى الاديرة العتيقة فى قلب الصحراء الصامتة .. هل حاولت ان تتصورى حياة احدهم وهو وحيد بين اربعة جدران منقطع عن الحياة والاحياء .. هل تصورت حياة الطلبة الغرباء القادمين من بلاد بعيدة ليطلبوا العلم .. هل تخيلت حياء احدهم الوحشة ووحدته فى حجرته القارية الباردة بلا لمسة حنان من ام رءوم او همسة عطف من اخت حنون او كلمة حب من اب عطوف .. هل رايت طفلا صغيرا غسل عن والديه فى طريق مزدحم .. هل رايت دموعه وهى تنهمر على خديه كالسيل ونظرة الهلع والحيرة فى عينيه .. هل تخيلت وحدته الرهيبة وهو تائه فى جزع باحثا عن امه وسط الزحام .. هل شاهدت موقف وداع بين اب وابنه على رصيف محطة القاهرة .. هل رايت دموع الاب وهى تتحدر على وجهه فى صمت بينما قلبه يتمزق من الاسى ،

والوهم يصور له انه قد لا يلقى ماساه ثانية ، والقطار ينطلق ماضيا بعيدا ، والابن ظل على ابيه وعلى بلاده الحبيبة نظرة وداع من خلف غشاوة من الدمع .. هل تخيلت احساس الابن بالوحدة وهو ينطلق بعيدا يحمله القطار الى الباخرة .. ثم الى العالم الواسع .. وحيدا كذرة تائهة فى الفضاء الفسيح .. هل تصورت كل هذا يا بنتى .. ؟

قالت لى الفتاة وعبرات دموعها تتساقط على خديها وتترك اثرا على المساحيق التى تلون وجهها :

ـ يا الهى .. ما اشد شقائك .. ان من يراك يظن انك كثير من الناس تعيش الحياة بلا اكتراث لكنك انسان غريب معذب ، ويخيل الى انك تحمل على كتفيك احزان البشر جميعا .. ولكن صدقنى ان الفكاهة هى سر سعادتك .

كان الحزن يضغط على قلبى ويطبق انفاسى ، وكنت اريد ان اخفف قليلا من هذا الحمل الناعم الثقيل الذى يكتم انفاسى ، فاستطردت القول كمن يحادث نفسه :

ـ صدقينى انا واحد من هؤلاء المساكين الذين حدثتك عنهم .. ليس لى اهل او زوجة او ولد .. لا احد على الاطلاق .. مقطوع من شجرة .. انسى فى هذا العمر .. فى غروب الحياة .. لست اطمع فى شىء .. لست اطمع فى الحب او فى الحنان ولكن فى العطف فقط .. العطف وحده .. تلك العاطفة النبيلة المقدسة التى يسخر منها بعض الناس ويتصورونها مرادفة للاحسان .. ذلك الذى يدفع الانسان العطوف ليقدم لسائل صعلوك جائع كسرة من الخبز يدفع بها الجوع عن نفسه . انى فى اشد الحاجة الى كسرة من العطف استمين بها على الحياة بقية حياتى .. كلمة عطف او كلمة اشفاق لى تكفف فاكلها شيئا ..

كانت الفتاة تستمع لى والدمع يلمع فى عينيها .. ثم قالت فى حزن :

ـ مهلا يا سيدى ، لست وحدك الذى يعانى من الوحدة . هناك ملايين الالوف والالوف .. لكن يجب على الانسان ان يتغلب على الوحدة وان يتصل بالناس ويعاشرهم ويملأ حياته بوجودهم .. ويجب عليه ايضا ان يتطلع لشىء ما ـ اى شىء .. ويجعل حياته تدور حوله حتى يتغلب على فراغ الحياة المخيف ويتخلص من الملل والسأم .. انى اعرف ارملة عجوز مات زوجها ولم ترزق لها ولدا او بنتا فاشتغلت بتربية القطط وعندها اكثر من عشر قطط .. ان حياتها كلها وسعادتها تنحصر فى هذه القطط فهى ترعاها وتطعمها وتقدم لها الطعام بيدها ، وتعيد القطط بالسيدة وتجلس على حجرها وتتمسح بساقيها وتطش على فراشها ، والسيدة تعتنى بها وتمسح على شعرها وكانها اطفالها الاعزاء .. ماذا كانت تصبح حياتها بدون هذه القطط ؟ لا ريب ان حياتها كانت ستكون كالعدم لو استسلمت لاحزانها ولوحدتها عقب وفاة زوجها .. واما .. فقد مات زوجى فى ريعان شبابه فى حادث وترك لى طفلا هو كل سعادتى وكل حياتى .. انى اعيش من اجله واعمل واشقى لاجعل حياته سعيدة ..

ـ ما اسعدك . ان لديك ما تعيشين من اجله . اما ذلك الذى ليس له ما يعيش من اجله فما اشقى حياته وما اقسى وحدته وعذابه ..

ـ لكن يجب عليك ان تعيش حياتك ، وليست الحياة هي جنة الفردوس التي وعد بها المؤمنون ولكن الانسان يستطيع ان يجعل من الجحيم فردوسا ويستطيع ايضا ان يجعل من الفردوس جحيما .. يا سيدي عش حياتك ولا تجعل هم اي شيء يدع الأمر كله لله ، فنحن لا نملك من امر نفوسنا شيئا . وفي كل مكان تستطيع ان تجد السعادة .. في الأكواخ والمشمش يوجد الناس اكثر سعادة من بعض سكان القصور الفخمة . صدقني ياسيدي ان السعادة تنبع من اعماقنا .. نحن الذين نصنعها ولا تأتي من خارج نفوسنا ، اذا رضينا انفسنا على السخرية من الأشياء ولم نعبأ بها ، استطعنا ان نبتسم امام الحياة ونستشعر السعادة . اقسم لك ان الحياة قد علمتني اشياء كثيرة .. اكثر كثيرا مما يتعلم الطلبة في الجامعات ومما يعلم الناس من الكتب .

وكان القطار قد وصل محطة « باب اللوق » فتأخرت عما ، وعند باب المحطة الخارجي مدت يدي امامها مودعا ، فاستبقت يدي في يدها لحظة ، وقالت لي وهي تتطلع الى وجهي في اشفاق وحيرة :

ـ انت ذاهب الى بيتك الآن .. ؟

فظلت لها كالصنم ، ووجهي كالصفحة البيضاء تماما .

ـ بيتي .. ! انني لا ادري الى اين انا ذاهب الآن .. سأتجول قليلا في شوارع القاهرة ..

فنظرت الي في دهشة وقالت في رقة وعطف :

ـ تتجول في الشوارع في هذا الوقت المتأخر . من اين انت قادم الآن ؟

فظلت لها كمن يتكلم وهو نائم :

ـ لا ادري من اين انا قادم . ولا ادري الى اين انا ذاهب . سأمضي الى حيث تقودني قدماي ..

فالتف وقد التمعت عيناها الجميلتان من الدهشة :

ـ هل تتكرم وتعرفني نفسك يا سيدي . انا اسمي سعاد ..

فلمت وحيرة شديدة تجتاحني حتى خطتني كمن يهذي :

ـ اسمي .. لا ادري .. تستطيعين ان تطلقي علي اي اسم يحلو لك . حسين . علي فؤاد .. اي اسم يخطر ببالك ..

فالتمت ونظراتها الفاحصة لا تتحول عن وجهي :

ـ انت في حالة غير طبيعية . ولا ادري ظروفك . انك تبدو كطفل تائه . تعالى معي ..

ضحكت في مرارة مستهزئة كالبكاء ، فقد اعجبني تشبيهها لي بالطفل التائه ، وقلت لها واما احمي بيد قاسية تهصر قلبي :

ـ انت مخطئة جدا في قولك . انا طفل ضائع . طفل كبير في حاجة الى الرعاية والحنان .. انا في حاجة الى العطف .. الى كسرة من العطف ..

وشرعت ابكي من جديد .. اخذت دموعي تتساقط في صمت ، وحاولت جاهدا السيطرة عليها ، ولكن جهودي ذهبت هباءا ..

سرت الى جانبها كطفل ساذج لا يدرى من امره شيئا ، فقد كنت فاقد الذاكرة تماما ..

سرنا فى طرقات واسعة متألقة بالأضواء تعرق فيها عربات انيقة فارهة تحمل ناس سعداء مترفين ذاهبين الى سهراتهم او عائدين منها ، وكانت العمارات واضواء النيون الملونة والمبانى المائلة بالمصابيح الوهاجة تبدو لى من خلف ستاوة الدمع كأنها معلقة بالضباب ، وخيل الى انى امشى فى طرقات مدينة غريبة لم تطأها قدماى من قبل .. كان الســـارة قليلين ، وكانوا يحتمون بالمعاطف من شـــدة البرد ..

وغادرنا الطرقات الواسعة المائلة بالأضواء الى طرقات اقل سعة واقل ضوءا ثم الى طرقات ضيقة خافتة الضوء فى حى شعبى . كنا نسير صامتين ، وكان كل منا كان يعيش فى عالمه الخاص الى ان قالت صاحبتى ونحن امام متجر مقال يقع على ناصية شارع :

ـ اسمح لى بدقيقتين اشترى بعض الخبز والطعام ..

واقبلت بعد لحظات تحمل لفافة الطعام ، واستأنفنا السير فى شوارع الحى الشعبى لم اتجهنا من شارع الى حارة ثم دفعنا الى زقاق مترب ضيئته فانوس غاز لا يكاد ضوءه يبدد الظلام . ودخلنا بيتا صغيرا من طابق واحد ، وفتحت سعاد باب حجرة بمفتاح كان فى حقيبتها ثم دخلت وتبعتها ..

كانت حجرة واسعة من المبانى القديمة تضيئها « لمبة » صغيرة وضعت خلف فتحة الباب المغلقة . وقدمت سعاد ووضعت لفة الطعام واشعلت مصباح الغاز ، فشع الضوء فى الحجرة ..

كان بالحجرة فراش يرقد عليه امرأة الى جانبها طفل ، وبها كنبتان ودولاب ومنضدة صغيرة ومقعد ، واستيقظت السيدة على ضوء المصباح وعلى صوت دخولنا ، وكانت متقدمة فى السن ، وقالت وهى تتطلع صوبنا :

ـ جئت يا سعاد ؟ .

فأجابت صاحبتى :

ـ نعم يا أمى . ومعى ضيف كريم ..

فأدرت السيدة الفراش وقامت لترحب بى ، واقبلت بمقعدى على الكنبة فى فرط احساسى بالتعب والانهيار ، واقتربت سعاد من الفراش واخذت تقبل امها وترنت عليه وتهتف باسمه حتى افاقته ، فأحاط عنقها بذراعيه الضعيفتين وأخذ يقبلها ثم قال لها فى صوت باكى :

ـ هل جئت يا ماما بالشكولاتة التى طلبتها منك ..

فأجابته فى حنان :

ـ نعم يا حبيبى ..

واخرجت من حقيبتها بدءا قطعة كبيرة من الشكولاتة قدمتها اليه ، فتناولها باسما متهللا ، ونظر صوبى متطلعا فقالت له :

ـ اترك ما فى يدك وسلم على عمك ..

وقفز الطفل من الفراش واقبل بصافحنى بيده اليسرى ، فقد كانت قطعة الشكولاتة تشغل يده اليمنى . كان فى حوالى السادسة من عمره ، وسيما ، لطيفا ، تشع من وجهه البرىء براءة الطفولة الحلوة التى تأسر القلوب ..

امسكت يده الصغيرة فى يدى ثم قبلته على خده ، وأحسست بغصة ضيق بما ملأه من حنان حتى يكاد يتدفق منه ، وشعرت بحصيص من نور الهى يتسلل الى جنبات صدرى المظلم فيشع فيه كومض

البرق ، فرحت املأ عيني من وجهه الذكي الحلو وانا فرحة لانفعالات شتى ليس لي بها عهد من قبل ..

وقمت سعاد الطعام على المنضدة الصغيرة ، والحت علي ان اشاركهم الطعام لكني اعتذرت لها فلم اكن اشعر باية رغبة في الطعام ، وطلبت منها ان تعد لي ـ بعد ان تفرغ من عشائها ـ كوبا من شراب دافيء . وجلست تتناول عشاءها مع امها وابنها ، وانا جالس على طرف الكنبة مطرقا ، وقد حرك منظرهم في قلبي احساسا عميقا بالحنين .. الحنين الى الاسرة واجتماع الشمل ، ولو لم اسيطر على نفسي لانفجرت مشاعري لحظتها لتفر الدمع من عيني ..

ولما شربت كوب اليانسون الذي اعدته لي سعاد عيدتها اصرت على ان يتركوا لي الفراش لارقد عليه لكني صممت على ان اظل مكاني على الكنبة ، فقامت سعاد مع امها وابنها على الفراش ، وتمددت على الكنبة بعد ان احضرت لي غطاء كانت محتفظة به للصيف ..

هل نمت الليل .. لا ادري .. لقد ظلت بقية الليل محدقا في السقف بعينين لاهثتين ، وعقل كف عن التفكير ولا يعي شيئا ، واظن انني غفيت عند الفجر واستيقظت على اشعة الشمس وهي تتسلل من خصاص النافذة ..

وفي الصباح افطرنا معا .. سعاد وامها وطفلها وانا .. وخيل الي انني في وسط اسرتي التي فقدتها منذ زمن بعيد ثم التقيت بها بعد مرور اعوام طويلة عرفت فيها بيننا الايام ، فكانت فرحتي بلقائها لا تقدر .. شعرت بسعادة لا حد لها وانا اعد يدي بالقمة نحو اقلمة في فمي الصغير ، وقد شعرت انه احبني وتعلق بي كما لو كان يعرفني منذ سنوات ..

كانت سعاد تحنو علي حنوا ملائكيا ، وحاولت ان تخلف الامي جهد ما استطاعت ، فكانت تطلق جشوا من المرح لتزعه علي .. كان قلبها كبيرا حتى خيل الي انه قلب يستطيع ان يحب الناس جميعا .. فالصدق ادركت بفطرتها السليمة انني في محنة عصيبة ، وانني انسان منكود سيء الحظ ، فكرست كل لحظة من وقتها لاسعادي ..

كانت تبدو لي بريئة كطفلة .. صادقة كراهبة .. سهلة كقديسة .. وان كنت قد عدلت حقيقة مهنتها .. عدلتني عن نفسها وعن حياتها ، وانهيا لعمل في احد المصانع لتستطيع ان تعول امها وابنها .. لم تعرف المسكينة على ان تصارحني بالحقيقة ، فاحترمت صمتها واكبرتها ، وادركت انها تحت ضغط الحاجة وقسوة الفقر ، وبعد ان سدت في وجهها جميع ابواب العمل الشريف اضطرت ان تبيع شرفها من اجل لقمة العيش .. لقد عدلت ذلك اول ما وقع بصري عليها في القطار والسيجارة بين شفتيها والمساحيق الصارخة تلون وجهها لكني صدقتها عندما زعمت لي انها تعمل في احد المصانع ، وانها تقوم بنوبة العمل ليلا في بعض الاحيان ..

شعرت نحوها بالاحترام ، وهزتني قوة احتمالها وتضحيتها السهلة في سبيل امها وطفلها .. ومن يدري الحقيقة .. قد تكون صادقة ، وقد اكون مخطئا في ظني ، والحقيقة يعلمها الله .. انها صغيرة على حاملها حمل ثقيل ومسئولية فادحة .. ام واين وبطلات سكن وطعام وثياب وكفاح من اجل الحياة في مدينة مكتظة بالناس يجري فيها الاحياء في سباق رهيب ، ويخالون بعضهم بعضا في سبيل القوت غير مكترثين بالضعيف بل كثيرا ما يدوسونه تحت اقدامهم ، فهي معذورة ان سلكت اي طريق ..

لم احاول ان اخدش شعورها او كرامتها بكلمة تظهر لها انني اعرف الحقيقة ولماذا ازيد عذابها عذابا وهي ترجو ان تبدو امامي امراة شريفة كغيرها من النساء تكد وتعمل لتعول امها وطفلها ..

كانت تسرد على مسمعها وانا الليل وجهها الشاحب الذى رسمت عليه الايام خطوطا من الشقاء ، وكانت قطرات دمعها تتساقط على خدها وهى تروى لى ذكرياتها مع زوجها قبل ان يوافيه الاجل المحتوم فى حادث فى الطريق .. فعدت على ذكريات سعادتها ثم ذكريات شقائها عندما وجدت نفسها وحيدة امام قدر معاند .. وكيف تبدلت بالحياة فى سنوات البلى وفكرت فى الانتحار عندما سدت امام وجهها جميع ابواب الحياة ، ولكن حبها لابنتها منحها الشجاعة لمواجهة الحياة .. ثم قالت لى فى صوت مفعم حزنا ولهفة :

ـ لا تظل انت وحيد فى حياتك .. الدنيا مليئة بالشقاء . انا ايضا تعلمت وعانيت كثيرا لكنى قاومت واحتملت ـ من اجل ابنتى وابنى ..

اصغيت اليها وانا احس بشىء يتمزق فى صدرى .. وتصورت حياتها وشقاءها وكفاحها الرهيب فى سبيل الحياة .. ان الفتاة التى قد تكون لولا جهدها لم تقو قط على ان تقوت نفسها وطفلها الكبير .. كم هى مسكينة وكم هى فى حاجة الى العطف والحنان ..

لقد تصورتها احسانا وبعض حالتين تأكل ابنها ابنتى وان قلبى حفيدى ؛ وانها اسرة سعيدة لا ينقصها شىء .. وكانت تغادر البيت احيانا فى النهار .. واحيانا فى الليل .. وكنت عندما اجد نفسى بمفردى اصعب غلطها معى واخرج الى الطريق ، فاشترى له بعض الحلوى ثم اتحول قليلا وعود الى البيت ، وقد علق بى الطفل واحبنى ، وتعلقت به واحببته ، وكأنه ابنى الذى حملته وليدا ، واشرفت على تربيته ..

فصيبه فى ضياعه سيعاد اياما لا ادرى عددها بالضبط .. اكثر يومين او ثلاثة او اربعة ايام .. لم اعنى متلها من قبل .. كانت تربط بيننا عاطفة نبيلة مقدسة .. صلة اب عطوف رحيم بابنته العزيزة .. وحتى غلطها الحبيب كان ينادينى احيانا بكلمة بابا ، وكانت تلك الكلمة تطرق سمعى كاعلى نغمة سمعتها اذناى طيلة حياتى ، وكانت احلى عندى من الشهد .. كنت سعيدا غاية السعادة ، سعادة لم احلم بها يوما ما ..

حتى كان ذات يوم ..

كان الصباح مشرقا جميلا ، وقد خرجت سعاد وصحبت غلطها لتتسرى له بعض الثياب ، وضقت بوحدتى فخرجت الى الشارع اتجول قليلا فى الشمس الدافئة . سرت فى الطرقات على غير هدى ، واحسست بالدفء يشع فى جسدى ، والسعادة تغمر صدرى ، والناس من حولى يمضون باسمى مشرقى الوجوه ، والعربات الفاخرة الانيقة تزحم الطرقات ، والسافورات فى المبادين تطلق ساقها الضاحكة فى ضوء الشمس ، ورذاذها يصبغ الوجوه فى عذوبة ورقة كلمسات حنون تنبه المرء لجمال الحياة وروعة الوجود ..

وقفت فى الميدان الفسيح الحافل بالجماهير الرائعة ، والحديقة الزاهرة ، بزهورها الملونة وعشبها الاخضر الزاهى ، والاطفال يجرون فى ممراتها المفروشة بالرمل الاصفر . ويتقافزون على عشبها الاخضر كالفراشات الملونة الجميلة . والقيت على دخل واقفى على تحية الصباح ثم مد يده وصافحنى وهو يقول وقد بدت على وجهه سمات الحزن :

ـ البقية فى حياتك يا سيد احمد . والله انا فى غاية الاسف . لم اعلم بالخبر الا بالامس فقط ..

نظرت اليه كالمشدوه ، ولم ارد عليه بكلمة .. كنت اقول لنفسى فى حيرة واضطراب :

ـ احمد ... من هذا الاحمد الذى تحدث عنه هذا الرجل ، وعلى من يعرفنى .. انى لا اعرف هذا الرجل .. لابد ان فى الامر خطأ ما ..

كان الرجل يتطلع الى وجهى فى اشفاق شديد ، ويهز رأسه متعجبا من ذهولى ثم استطرد :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . انا اعرف ان الصدمة كانت شديدة عليك . ان زوجتك كانت كل شىء فى حياتك ... الله يرحمها كانت جوهرة نادرة وكانت اكمل النساء والفضلهن . رحمك الله يا سنية هانم رحمة واسعة وجعل الجنة مثواك ..

كنت استمع الى الرجل كمذهول فقد رشده .. وخيل الى انى ادور فى دوامة عنيفة . احسست بدوار شديد وارتعت حتى كدت اسقط على الارض مغشيا على .. وشيئا فشيئا بدأت ملامح الرجل تتضح فى كأنما انقشع عنها الضباب الكثيف الذى كان يغمرها ، وخيل الى انى استيقظ من نوم عميق .. نعم .. هذا هو صديقى السيد خليل ... وسنية ... زوجتى التى رحلت عن الدنيا وتركتنى وحيدا غائما .. كيف نسيت كل هذا ، وما هذا الحجاب الكثيف الذى كان مسدلا على ذاكرتى ..

وقفت فى مكانى مبهوتا .. اتلفت حولى كمن استيقظ لتوه من نوم عميق ، ولم اقو على ان ارد على الرجل بكلمة .. كنت نصف نائم ونصف يقظان ، فدنا السيد خليل منى وربت على كتفى وهو يقول فى رفق :

ـ تجلد يا سيد احمد ... هكذا حال الدنيا ..

فشكرته بكلمات مضطربة متعثرة ..

انصرف الرجل وتركنى مستغرقا فى مكانى تتصارع فى الافكار .. اين انا .. واين كنت اعيش فى الايام الخالية .. انا الآن واقف فى ميدان من ميادين القاهرة اتطلع الى هذه المناظرة وهذه الوجوه وهؤلاء الاطفال ، ولكن اين كنت فى الايام الخالية . انا كنت فى مكان ما ... هنا فى القاهرة ... اعيش مع سيدة صغيرة رقيقة حنون ذات قلب كبير يسع الناس جميعا ، وكان معنا طفل ... طفل صغير احببته ما وسع قلبى أن يحب ، ولكن فى اى مكان من هذه المدينة الواسعة تعيش تلك السيدة وهذا الطفل اللذين احببتهما واحباني ، وعشت معهما اياما لن تنمحى من ذاكرتى ما حييت ...

هل حدث هذا حقيقة ام كان حلما ... ؟ يخيل الى انه كان حقيقة وانى عشتها بكل خلجة من نفسى وكل نفس تردد فى صدرى ... ويخيل الى فى نفس الوقت انه تصورات صنعها خيالى المرضى ... مجرد احلام تخيلها عقلى المضطرب واحالها الى حقيقة ... هل كنت مريضا فى تلك الايام ، وكنت فريسة تصورات حمى خبيثة .. لا .. لا .. ان ما حدث كان حقيقة .. حقيقة لا ريب فيها ، حقيقة كهذا الضوء ، وهذه الزهور ، وهذه الحديقة التى تقع عليها بصرى ..

وقفت حائرا اشد شعرى واحاول جاهدا ان اذكر مكان ذلك البيت الذى عشت فيه تلك الايام الخالية ... الايام السعيدة التى لن اعيش مثلها ابدا ، والتى شاء القدر ان تسقط من تقويم حياتى .. كما تسقط اوراق التقويم فتأخذ مكانها فى سلة المهملات ..

كنت ابكى من الغيظ والقهر ... أما من امل .. ؟ اما من بصيص من الضوء يسلل الى عقلى المظلم فيهديني الطريق الى مكان تلك البيت الطيبة والطفل الوسيم .. ؟

كان الندم يمزق نفسى ويقهرنى بسياطه .. ماذا تقول تلك السيدة الرقيقة ذات القلب الكبير التى منحتنى العطف المقدس بلا ثمن .. اتقول انى هربت منها كاللص دون ما كلمة شكر او كلمة وداع ، والخطل العجيب الذى لمع فى حياتى كالشهاب كيف تفسر له اختفائى فجأة وقد تعلق بى ولم يكن يفارقنى لحظة ... وكيف تصبح حياتى بدونه .. ؟

وسرت فى الطرقات على غير هدى ... كانت الشوارع غاصة بالمارة ، والسيارات الانيقة والنساء الجميلات يطفرن على الاقاريز بثيابهن الملونة من صفراء وخضراء وحمراء وبنفسجية وفى لون الفضة وفى لون الذهب ، وكانهن زهور مختلفة الالوان لكل زهرة لون خاص وعطر خاص وجمال خاص ، والرجال يحتون الخطى فى حيوية وشباب يسابقون الحياة ، والنسوان يسيرون جماعات يطلقون الضحكات من فلوب مرحة ، ويبتسمون للغرباء ويلقون فى اسماعهن كلمات اعجاب حلوة ، وواجهات المتاجر كلوحات فنية رائعة رسمها فنانون عباقرة ، وحوانيت الزهور تعرض زهورها الجميلة التى تستوقف البصر من خلف زجاج لامع تسيل عليه مياه كمياه الفيضان .. كل شىء جميل .. كل شىء يحرك القلب ويجعل الدم يتدفق حارا فى العروق ويحبب الانسان فى الحياة .. ما عداى انا .. كنت ضائعا تلح على فكرة واحدة ، وتكاد تدفعنى الى الجنون .. لابد ان اعثر على البيت الذى عشت فيه اياما سعيدة لا تتكرر ..

وانقض النهار ، وغربت الشمس ، واضاءت المصابيح ، وانا هائم على وجهى فى الطرقات ، وقد فقدت كل امل فى العثور على البيت ، ولم تعد قدماى تقويان على حملى من شدة التعب والاعياء ، وبدا لى من فرط الجهد العقلى الذى كنت اعانيه ان كل ما حدث كان اضغاث احلام ..

واتجهت الى محطة قطار حلوان مجرورا منهوك القوى .. هناك فى الضاحية الهادئة النزهة تنتظرنى وحدتى العزيزة الحبيبة التى لم استطع ان اهرب منها .. هناك انا .. من جديد .. مرة اخرى .. اتحول فى حجرات شقتى كسير القلب محطما ..

هنا ستوى ذكرياتى ، وهنا سعادتى التعسة .. هنا طيفها ، وصدى صوتها ، وعطرها ، والماضى كله .. هنا ساعيش بقية حياتى اغذى من ذكرياتى ..

ولكن ... لقد قلت لى تلك السيدة الصغيرة الطيبة ذات القلب الكبير انه يجب على الانسان ان يتصل بالناس ويعاشرهم ويملأ حياته بوجودهم ، وان يتعلق بشىء ما .. باى شىء .. ويجعل حياته تدور حوله حتى تعثر على فراغ الحياة المخيف ، وانها كانت تعرف ارملة محور تعلقت على احزانها ووجدت سلواها فى تربية القطط والعناية بها ، وانا هل سأظل اعيش هنا على احزانى والمات من ذكرياتى ... ان الذكريات طعام العاطلين والمحزونين والفاشلين ... هل سأظل ادور فى شقتى كالطائر السجين فى القفص ..

ان الحياة حافلة بكل ما هو طيب جميل .. عليه بالعلاقات الانسانية السليمة .. فلماذا اظل قابعا فى حجرى اختر احزانى وافكر فى نفسى فحسب .. لماذا لا احطم هذه القوقعة التى تحصرنى فى داخلها واخرج الى النور والهواء .. لماذا لا اذهب الى فريتى حيث نشأت ولعبت فى دورها طفلا وصبيا وتردد عليها شابا .. لماذا لا اذهب الى هناك حيث تعيش البقية الباقية من اسرتى فاملأ فراغ حياتى بوجودهم واكرس هذه الحياة لاسعادهم واسعاد غيرهم من رفاقى طفولتى وصباى بل واهل القرية جميعا ..

لقد ملأت تلك الأرملة المحور حياتها بالاهتمام والعناية بتربية القطط .. رهبت حنان قلبها المتدفق للحيوان .. فلماذا لا اهب حياتى للانسان ، واكرسها للعمل من اجله ..

وعندما غادرت بيتى فى الفجر وانا أحمل حقيبة صغيرة بها بعض الثياب الضرورية كان الليل قد رحل بعيدا محطما وراءه ظلا رماديا باهتا ..

واتجهت صوب المحطة ، وركبت أول قطار يسافر حلوان ، ورفعت فى الناظرة التى تطل على الضاحية الساكنة ...

عندما تحرك بى القطار بدا كل شىء امام عينى زاهيا مشرقا فى ضوء الشمس البازغة .